المحاضرة الثالثة : التفاسير الدينية للتاريخ (التفسير اليهودي -)

مقدمة :

تعد إشكالية التفسير أهم مقومات دراسة التاريخ، إذا تتعلق بالكشف عن الأسباب والعلل التي تحرك الأحداث والوقائع، وتحولها إلى مقومات تتضمن الأحكام العامة. وتتفاوت قيمة إنجازات المؤرخين في هذا الصدد، فيكتفي البعض بتحقيق الروايات لإثبات مصدقية الحدث ليس إلا، ودون ولوج باب التفسير أو حتى التعليل. ولا غرو، فقد ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن التحقيق هو غاية المؤرخ، أما التفسير فيعكس رؤية المؤرخ الخاصة، بما يسهم في تضبيب الأحداث والوقائع، ويزيد في غموض الحقائق الموضوعية بإضافة "انتماءاته" التي تحتمل الصواب أو الخطأ. على أن الاتجاه يفت في قيمة عمل المؤرخ، لأن علمًا بلا تعليل أو تفسير، أنما هو علم ناقص. عندئذ يتحول المؤرخ إلى "إخباري" يقتصر دورة على جمع الروايات وتدوينها. ويترك المجال لغير المتخصصين لتفسير الأخبار، بما يثير البلبلة والتخبط. وعندنا أن التعليل والتفسير أمر لازم لكي يكون المؤرخ بحق مؤرخًا، فلا علم بلا سببية. بل إن مهمة العلم الأولى هي استكشاف العلل والأسباب التي تكشف عن الحقيقة. وإذا كان التعليل تعبيرًا عن رأي المؤرخ، فيعبر التفسير عن رؤيته. وقد تتعدد الآراء وتتنوع الرؤى حسب درجة ثقافة المؤرخ، فيعبر التفسير عن رؤيته. وقد تتعدد الآراء وتتنوع الرؤى حسب درجة ثقافة المؤرخ ووضعيته الطبقية ومعتقداته الدينية والمذهبية وأيديولوجيته السياسية.

1 ـ التفسير اليهودي

أ - التاريخ عند اليهود:

من الخطأ الظن أن عصر العلم قد ألغى الأساطير وفقا لمقولة أوغست كونت و قوله بالمراحل الثلاثة للفكر البشري، ذلك أن ما من مرحلة تطمس أو تلغى سابقتها، و إنما تتعايش معها و مع اللاحقة عليها تماما، كما قد نجد في مرحلة النضج لدى بعض الناس أنماطا طفولية لدى آخرين، و عليه فإن أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ و موقفهم منه، تبلوره الكتب العبرانية المقدسة. و بديهي أن ما غلب من طابع تاريخي على معظم تلك الكتابات خبر شاهد على اهتمام اليهود بتاريخهم، فإن الترتيب الذي جمعت على أساسه يشير إلى تتابع تاريخي

بداية بما اعتبره القوم بداية البشرية، و تدل محتويات الأسفار التاريخية على أن اليهود كانوا على اهتمام بشيء أعمق من مجرد تسجيل الأحداث إذ الشيء الأهم في نظرهم من ذلك هو تفسير الأحداث من حيث اتجاهات من ورد ذكرهم فيها و ما يدخل تحت ذلك من علاقات ضمنية بالإله[1].

لقد كانت نظرة اليهود إلى التاريخ، تقوم أساسا و في أوسع نطاق على المذهب التأهيلي، فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية. و مع أن الإصحاحات الأولى من سفرهم الأول (التكوين) اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية، فإن تلك الكتب تنطوي على فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشري إنما ترجع إلى الله، فهو الذي خلق الأرض بكل مالها من خصائص تجعل التاريخ ممكنا على ظهرها.

و ذهب اليهود إلى أن الله ظل دائما على اتصال بالناس في التاريخ، و فكرتهم عن التاريخ لم تكن قط، ذات نزعة فردية فهي فكرة تدور حول شعب إسرائيل أولا ثم حول البشرية عامة.

ب - الأساطير المغذية للعنصرية اليهودية: يقول الدكتور حسن ظاظا: " قد تكون الخزافة أقوى أثرا في خلق النفسية العنصرية من الحقيقة التاريخية نفسها خصوصا إذا اصطبغت بقدسية الدين، و هدا ما كان من أمر الشخصية الإسرائيلية،[2] التي تحاول الالتصاق بالإله حتى تضفي على نفسها قدسية خاصة تجعل الغير يعتقد أنهم فعلا شعب الله المختار.

ج- أسطورة صراع يعقوب مع الإله:

فر يعقوب من أصهاره بالعراق و في طريقه اعترضه جدول ماء و تعرض له شخص بات يصارعه حتى الفجر و لم يستطع التغلب عليه حتى لحق الوهن بالشخص فطلب من يعقوب أن يخلي سبيله لأن الفجر قد طلع، فقال له يعقوب: لن أتركك تذهب إلا إذا باركتني.

---

[1] ـ قريقوري و إيدقري: **التاريخ و كيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.ط)، 1972، من ص 85 إلى ص 88.

[2] ـ أحمد محمود صبحي : **في فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص 293.

أوغسطين بالتناقض في قوله: إن طرف الحرب لا يسر لها غور في كتابه (رسائل إلى أهل روما) إذ يقول بليخانوف: " ما جدوى المشاق التي تعترض الإنسان في البحث عن النعمة التي لا يصل إليها".[3]

و بهذه الكيفية نجد أن المسيحيين أيضا يضفون الصبغة اللاهوتية على التاريخ و يفسرونه وفق منظورهم الخاص نافين أي دور للديانات الأخرى و لا للإنسان بصفة عامة.

د ـ تفسير اليهود للتاريخ

من الواضح أن التفسير اليهودي للتاريخ يستند أساسا إلى فرضية مفادها أن التاريخ ينقسم إلى قسمين أساسيين هما:

1ـ تاريخ مقدس : وهو الذي ينطبق على تاريخ بنو إسرائيل، الذي هو تاريخ مقدس، لأنه يحظى بالعناية الإلهية.

2ـ تاريخ طبيعي: وينطبق على تاريخ باقي الشعوب الأخرى، الذي هو تاريخ عادي، حيث لا سبيل للقداسة فيه.

إن التاريخ المقدس يضع اليهودي في إطار مغلق مخصوص بالعناية الإلهية، إذ أن فكرة العناية الإلهية سادت في معظم الحضارات القديمة ، بقد دور الدين فيها، لكن تفاوتت في مفهومها، فمعظم الشعوب في هذه الحضارات سواء كان الأمر مع المصريين أو الآشوريين أو الأكاديين أو اليونانيين قد آمنوا بأن الإنسان جزء من الكون، تسري عليه ما تسري على الكون من نواميس. غير أن بنو إسرائيل خالفوا هذه الشعوب باعتقادهم أن اليهودي وحده دون سواه،أصبح له وضع في هذا الكون، حيث أصبح عالمه مظهر لعناية الله، وأن هذه العناية مقصودة على شعب الله المختار. وأن أحداث التاريخ في نظرهم لا تتكرر، ولا تتعاقب، ولكنها تتخذ مسارا مستقيما، لتستكمل من خلاله الهدف المنشود لليهود، وهو العودة إلى ارض الميعاد.

---

[3] ـ جورج بليخانوف : **محاضرات في فلسفة التاريخ**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1973، ص 13.

هـ ـ التاريخ والرواية الدينية اليهودية : ترتبط الديانة اليهودية بالنبي موسى عليه السلام، فيعود ظهور النبي موسى إلى قرون سابقة لميلاد النبي عيسى عليه السلام، حيث خرج موسى مع جماعته التي أطلق عليها فيما بعد اسم اليهود، فتاهوا في صحراء سيناء مدة أربعون سنة (40 سنة) لأنهم لم يقدروا على دخول أرض كنعان، فظلوا على هذه الحال إلى أن ظهر جيل محارب قوي فدخلوا أرض كنعان بالقوة، وفي سيناء أثناء تواجدهم هناك نزل الوحي على موسى . فهذه الفكرة التي يتمسك بها اليهود، على اعتبار أنهم أول من اكتشف فكرة الله، أي أنهم يعتبرون أنفسهم أقدم شعب أعطى الله مفهوما جديدا. كم يعتقدون أيضا أنه في هذه الفترة طغت عليهم النزعة الحربية.

إن الشريعة اليهودية تحتوي على مجموعة من الأسفار مثل سفر التكوين وغيره، لكن هناك من يشك فيهم، كما هو الشأن مع سبينوزا الذي يقول أن ألواح موسى المعروفة بالوصايا العشر موجودة لكنها فقدت وشوهت، فالأحبار والكهنة القائمين على شؤون اليهود قد أضافوا إليها شروحا، وبقي الشك حول هذه النقطة. وبعد وفاة موسى تولى الأمر بعد **يشوع بن النون** الذي قرأ السفر وهذا بعد أن احتل هؤلاء المهاجرون في مصر أرض كنعان، لأنه من النصوص التي تثبت نزعة التعصب المهيمنة على هؤلاء القوم . وبعض الأحاديث تروي لنا أن النبي موسى اعتزل في سيناء ونصب شقيقه هارون، فوجد أن اليهود قد انقلبوا على ديانته، وتوكيل موسى لهارون للشؤون الدينية جعلت سلالته تحتكر هذه المهمة. حيث يقال أن موسى تم اغتياله وذهب ضحية مؤامرة داخلية يعود سببها إلى أن اليهود أرادوا أن يعجلوا في ارض كنعان، وكان موسى قد منعهم من هذا التعجيل. غير أن هذه النقطة فيها جدل، لأن موسى لم يقرأ من زمنه وحياته ما وجد في التوراة، والجدير بالذكر أنه وضع كيان سياسي إلى جانب الكيان الديني، حيث جمع بين يديه السلطة الزمنية والسلطة الدينية، ومنها اقتبسوا تشريعاتهم وسياساتهم. فأحد هذه الروايات تقول أن التوراة كتب بعد موسى بعدة قرون، أما الشروح والتعليقات على التوراة فسميت بالتلمود، الذي قسم إلى أسفار وهي الشؤون السياسية والشؤون الملكية والبضاة .

إن التعصب والانغلاق لليهود جعل كل الشعوب تضربهم خاصة الرومان والبابليين، غير أن أفكر اليهود جمعت في التوراة والتلمود، إذ أن هناك عدة مواقف من التاريخ في بدايته وفي

نهايته ويوم القيامة، وهي ما توحي بـالنظرة السـكونية للتـاريخ، الـتي تقـول أن الحيـاة بخيرهـا وشرها الآن. والآخرة قد جاءت متأخرة عندهم في الكتابات اليهوديـة، ولم تظهـر فكـرة الجنـة والنـار إلا متـأخرة، وبـدأت فكـرة الإلـه تتطـور وتتعـدد حسـب الظـروف، وأن التـاريخ يـدور ويستمر- وليس هناك جديد في التاريخ.[4]

[4] - مفيد الزيدي : **المدخل إلى فلسفة التاريخ**، مرجع سابق ، ص 76.